المبحث الأول

الفواصل المنفردة في افتتاح السور

يقول السيوطي : « من البلاغة حسن الابتداء ، وهو أن يُتأنق في أول الكلام ، لأنه أول ما يقرع السمع ، فإن كان محررًا أقبل السامع على الكلام ووعاه ، وإلا أعرض عنه ، ولو كان الباقي في نهاية الحسن » [(١)] .

وقال ابن أبي الأصبع : « ومما يدخل في هذا الباب من الكتاب العزيز ابتداءات السور ، وإذا تدبرتها ، جملتها وتفصيلها ، ومفرداتها ومركباتها ، ومعجماتها ومعرباتها ، ونظرت في أعداد حروفها وما يوافق أعدادها من العدد الحسابي ، وما نسب إليه من المعاني ـ رأيت من بلاغة التفنن في أنواع الإشارة ما تقصر عنه العبارة » [(٢)] .

والمتأمل لمطالع السور في القرآن يدهشه ما يصاحبها من استثارة للحس والوجدان ، واستمالة للقلوب والأسماع ، بما تضمنته من تنوع في جرس موسيقاها وفواصلها ، وما حفلت به من شحنات دلالية لافتة ، تفجؤ القارئ بغموضها وإبهامها حينًا ، مثلما نشاهده في استهلال بعض السور بالحروف المقطعة ، التي تباينت الآراء في فهم مغزاها ، وبالحذف أو الإحالة إلى سورة سابقة ، ولفت الأسماع بقوة جرسها وشدة طرقها كما في سورتي الحاقة والقارعة،أو تنوع الأنغام فتأتي موسيقاها سريعة لاهثة مكونة من جمل قصار، لتصور بإيقاعها سرعة الأحداث وتتابعها ، كما في مطالع سور الذاريات

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/٩٦٩ .

(٢) بديع القرآن ص ٦٤، ابن أبي الأصبع ، حفني محمد شرف ط٢ ، دار نهضة مصر .

والمرسلات والنازعات والعاديات ، وتأتي رخية هادئة لتشيع جوًّا من الطمأنينة والأمن ، كما في سورتي طه والنجم ، وتتنوع الأساليب في المطالع بتنوع النداء والاستفهام والقسم ، والشرط والأمر ، والماضي ، والمضارع ، والتعبير بالماضي عن المضارع ، والخبر المثبت والخبر المنفي ، وبذكر الفاعل أحيانًا ، وتغييبه حينًا ، كما في سورة «عبس» التي أخفى الله تعالى فيها الفاعل ، تجنبًا لإسناد ما يكره إلى الرسول ـ عليه السلام .

وتأتي الفواصل في المطالع منفردة تارة ، ومتسقة مع ما بعدها تارات أخرى ، والفواصل المنفردة في افتتاحيات السور ست ، اثنتان من الحروف المقطعة ، والثالثة صدرت بحرف التهجي ، والرابعة صدرت بالنداء ، والخامسة صدرت بأداة الشرط ، وهي جميعها تشترك في عدم استقلالها بمعنى كامل ، مما يجعل المتلقي متشوقًا إلى ما بعدها ، وهي حين تكون فاصلة مستقلة موقوفًا عليها ، تضاعف من ترقب السامع ، وإثارة انتباهه ، والسادسة جاءت في مطلع سورة الإسراء ، وهي الفاصلة الوحيدة المنفردة في مطالع السور التي استقلت قرينتها بمعنى كامل .

لقد تصدرت الحروف المقطعة تسعًا وعشرين سورة ، وتنوعت حروفها حتى شملت نصف حروف الهجاء ، واختلفت في عددها من حرف إلى خمسة حروف ، وكان لغرابتها وخفاء المراد فيها أثر في تعدد التأويلات التي تجاوزت العشرين ، من دون أن يصل فيها أحد إلى رأي يعتمد على دليل علمي قاطع ، حتى قال السيوطي : «وقد تحصل لي فيها عشرون قولاً وأزيد ، ولا أعرف أحدًا يحكم عليها بعلم ، ولا يصل منها إلى فهم» [1] ، وهي لذلك عدت من متشابه القرآن الذي لا يعلم تأويله إلا من أنزله .

فكل ما دار حول هذه الحروف اجتهادات قاربت حينًا ، وباعدت في معظم الأحيان ، كتلك التي أدخلتها في حساب الجُمَّل ، وقاست بها عمر هذه الأمة ،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/٦٦٤ .

وحاولت بعض الاجتهادات ربط هذه الفواتح بالمناسبات ، وأحصت تكرار هـذه الحروف في سورها بما يدل على اختصاص كل حرف بسـورته ، وعـدم صـحة وضعه موضع الآخر . غير أن هناك حقيقـة لا يمكـن منازعتهـا ، هـي أن هـذه الحروف صاحبها حديث عن القرآن الكريم في سـت وعشـرين سـورة افتتحـت بهذه الحروف المقطعة ، مما يرجح أنها تتعلق بأسرار الإعجاز في هـذا الكتـاب المجيد ، وترتبط بتحدي العرب ، وهم أرباب البيان وفرسان البلاغـة ، والمنـاداة بعجزهم عن محاكاته ، مع أنه يتألف من الحروف والكلمات التي تجري علـى ألسـنتهم . يقـول الزمخشـري : « الوجـه الثـاني أن يكـون ورود هـذه الأسمـاء مسرودة على نمط التعديد ، كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُحدِّى بـالقرآن وبغرابـة نظمه ، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أنه لم تتسـاقط مقـدرتهم دونـه ، ولم تظهـر مَعْجَـزَتُهم عـن أن يـأتوا بمثلـه بعـد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار ، وهم الحِـرَاص علـى التساجل في اقتضاب الخطب ، والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجـز ، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزَّت كل ناطق وشقت غبار كـل سابق ، ولم يتجاوز الحد الخـارج مـن قـوى الفصـحاء ، ولم يقـع وراء مطـامح أعين البصراء ، إلا لأنه ليس بكلام البشر ، وأنه كلام خالق القوى والقُدَر ، وهـذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل » [1] .

تصدرت هذه الحروف المقطعة تسعًا وعشرين سورة ، عُدَّت آية في ثماني عشرة منها وكانت هي القرينة والفاصلة معًا ، وقد جاءت جميع هذه الفواصل متحدة الروي مع ما بعدها أو متقاربة ، عدا فاصلتي الأعراف ومريم ؛ فقد جاءتا منفردتين ، وهما من أطول الحروف المقطعة (المص ـ كهيعص) فكان لانفرادهما أثره الكبير في لفت الحس ، واستجماع قوى النفس ، واستثارة

---

(١) الكشاف ١/٩٥ – ٩٧ .

العقل لتأمل دلالتهما الرمزية ، وما استكنَّ فيها من أسرار الكتاب المعجز ، فقد أعقب هاتين الفاصلتين ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ (الأعراف:٢) ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ (مريم:٢) ، وكلاهما ما وُجِّه فيه الحديث إلى النبي ـ عليه السلام ـ ليلتقي انفراد الفاصلة بانفراد الرسول ﷺ بهذه المعجزة الخالدة ، التي تشهد بصدق النبوة ، ففي آية الأعراف تتجاوب وحدة الفاصلة مع تفرد القرآن من بين كتب الله بالإعجاز ، وتفرد النبي ـ عليه السلام ـ بما أنزل إليه من البيان المعجز ، الباقي إلى يوم القيامة ، وفي آية مريم يتجاوب تفرد مطلع السورة بتفرد هذا النوع من رحمة الله ، التي غمرت زكريا عليه السلام ، وآوته في وحدته وانفراده ، وكأن هذه الحروف المقطعة في بداية السورة إيماءة إلى هذه الوحدة ، التي كان يعيشها ، والتي عبر عنها زكريا في دعائه ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٩) .

والفاصلة الثالثة المنفردة جاءت في مطلع سورة ص ، وهي قوله تعالى : ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ ، وهي فاصلة اقترنت بحذف جوابها ، بما يثيره هذا الحذف من الإبهام والغموض ، وإطلاق الخيال في البحث عن الجواب ، كما تميزت بإيقاع فريد ينتهي بحرفين ساكنين ، هما الكاف والراء الموقوف عليها ، بما فيها من التكرار ، المناسب لمواقف الجد والحسم . إن هذه الفاصلة فريدة في إيقاعها ، مغايرة في نسقها للفواصل التي اتسمت بهدوء الإيقاع بعدها ، حيث بنيت على روي مردوف بألف المد ، وهو إيقاع رخي يناسب الحوار والقص ، وكأن هذا الانفراد قصد به التركيز على هذا الوصف ﴿ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ ، وهو الوصف الذي صار علمًا للقرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) ، ولذلك تكرر هذا الوصف في سورة ص في هذه الفاصلة وثلاث آيات غيرها وهي : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ (ص:٨) ، ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (ص:٤٩) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (ص:٨٧) . هذا فضلاً عن ورود مادة الذكر في صورة الأمر مع بداية قصص الأنبياء ﴿ وَٱذْكُرْ

﴿ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ (ص:١٧) ، ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ (ص:٤١) ، ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (ص:٤٥) ، ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ (ص:٤٨) ، وهي ظاهرة فريدة في القرآن كله في بداية قصص النبوة ، وكأن هذه الفاصلة أريد لها بتفردها أن تكون مقصد الكلام في هذه السورة ، بها تبدأ ، وبها تنتهي ، وهي واسطة العقد ، إذ حفل وسط السورة من الآية الحادية والأربعين حتى الآية التاسعة والأربعين بتكرار مادة «الذكر» ست مرات : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ (ص:٤١) ، ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص:٤٣) ، ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (ص:٤٥) ، ﴿ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ (ص:٤٦) ، ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ (ص:٤٨) ، ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ (ص:٤٩) ، فإذا علمنا أن آيات هذه السورة ثمانٍ وثمانون استبد بنا العجب من هذا التكرار ، مع تلاقي مطلع السورة ومقطعها في هذا الوصف للذكر الحكيم ، إذ اختتمت السورة بالذكر مرتين : ظاهراً ومضمراً في الآيتين الأخيرتين ، وهما قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ (ص:٨٧،٨٨) ، مما يؤكد دعوانا أن انفراد هذه الفاصلة قصد به التركيز على هذا الوصف للقرآن ، إيماء إلى أنه سيظل باقيًا بحفظ الله يُذكّر الخلق بما أودع الله فيه ، ويذْكُرهُ الخلق لا ينسونه ، ولا يتسرب إليه الضياع .

والفاصلة الرابعة المنفردة في فواتح السور جاءت في مطلع سورة المزمل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ (المزمل:١) وهي فاصلة فريدة في إيقاعها ، لا يشبهها إلا الفاصلة التي افتتحت بها سورة المدثر ، غير أن الفاصلة هنا انفردت في إيقاعها عما بعدها ، في حين تواطأت الفواصل مع مطلع سورة المدثر ، وكلتا الفاصلتين عمد فيهما النظم إلى سرعة الإيقاع وحدَّته بإخفاء التاء من المتزمل والمتدثر ، وإدغامها بعد إبدالها فيما بعدها ، فجاءت كل مقاطع الفاصلة مقفلة ، وكأن القرآن بهذا الإيقاع السريع في الفاصلة يستنهض الرسول ـ عليه السلام ـ ويستحثه على النهوض بالأمر العظيم الذي انتدب له ، إلى جانب ما دل عليه

الإدغام من محاكاة لإخفاء النبي نفسه في ثيابه ، التي يداري بها رجفته ورعشته مما شاهد من مفاجأة الوحي ، وهو الذي صرح به برهان الدين البقاعي : « مع الإشارة على الإخفاء أيضًا بإدغام تاء التفعل » [1] . وقد جاء انفراد الفاصلة في مطلع سورة المزمل متجاوبًا مع الفاصلة المنفردة في ختام السورة ، لتركز الأولى على الرسول ، وتركز الأخيرة على المُرسِل .

أما الفاصلة الخامسة من الفواصل المنفردة في مطالع السور فهي قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ ، وهي فاصلة لا يشبهها في إيقاعها إلا الفاصلة التي افتتحت بها سورة ص ، وكلتاهما من الفواصل المنفردة ، كما أنها تشبهها في كون كل من الآيتين جزء جملة لا يستقل بالمعنى ، الأولى قسم بلا جواب ، والثانية شرط مفصول عن جوابه ، والوقوف عليه يوجه اهتمام القارئ إلى الفاصلة الموقوف عليها ، وانفرادُها يجعلها كالفريدة في عقدها ، وقد قصد القرآن به إبراز أهمية هذا الحدث الجليل ، وهو فتح مكة الذي انتظره المسلمون طويلاً ، حيث كان تأبِّى أهل مكة عن الدخول في الإسلام ، وهم أهل الرسول وأصحاب الزعامة الدينية في الجزيرة العربية ، عائقًا عن انتشار الإسلام ، ثم إن البشارة بالفتح تعد من دلائل النبوة ، في الوقت الذي كانت فيه مكة تستعصي على الفتح .

---

(١) نظم الدرر ٣/٢١، برهان الدين البقاعي . دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ط٢. عام ١٩٩٢م .